تاريخ الأدب النسوى
فى فرنسا
للأستاذ محمد بك كرد على

Jean Larnac : Histoire de la littérature féminine en France

بينا نرى تركيا تقرر مساواة المرأة بالرجل ، وتعترف لها بحقوقها السياسية فى المجتمع ، غير ناظرة إلى ماضيها وحاضرها ، ولا لاستعدادها المطبوع والمكسوب ، ولا إلى قلة عدد المتعلمات من بنات جنسها فى بلادها ، يخيل اليها أن تجعل منهن أو أن ترتجل منهن عالمات مفكرات ناخبات منتخبات — بينا نرى هذا فى الشرق وتركيا تضع تشريعاً جديداً تجرى أحكامه فى أمة تغرق كثرتها الغامرة فى بحر لجى من الجهالة والأمية ، نرى رجال الغرب على كثرة ما بلغته المرأة عندهم من درجات النشوء والرقى ، يحاذرون أن تساوى الرجل عندهم فى كل الحالات ، ناظرين فى ذلك إلى عدة اعتبارات نفسية وجسمية وعلمية وأدبية وتاريخية

جرأة مستغربة من الترك فى محاولة أمر لم تتم أسبابه ، ولا بعضها ، وتأن لا غرابة فيه من الغربيين ممن بنوا مدنيتهم على العقل ، وساروا بسنة التطور الطبيعى فى كل مظاهرهم ، فأحدثوا هذه الحضارة القائمة على أساس راسخ من العمل والنظر ، ولو نسج الغرب خيوط مدنيته بالخيال ، تمليها العواطف ، ولا يدعمها العقل المولد ، ولا التجارب المسددة ، لما شهدنا هذه المدنية تتفوق على غيرها ، وتكسف شمس المدنيات القديمة التى كان من أعظم ما منيت به عصور جهالات كانت سود لياليها ، ونظريات خيالية ، فقد فيها التسلسل ، ومات منها الابداع

حقا إن أهل البصيرة لا يفهمون سيراً لهذه المغامرة فى جمهورية الترك ، إلا إذا غالطوا حسهم . أليس من أعاجيب الدهر أن ينام الأتراك قروناً عن الأخذ بمذاهب الحضارة ، ويهبوا اليوم دفعة واحدة يحاولون أن ينفذوا قوانين الجمهورية السويسرية فى سكان آسيا الصغرى . ولا يختلف اثنان أن السويسريين أصحاب هذا القانون وصلوا اليه فى عدة قرون ، فاستووا أرقى شعب فى الأرض ، أو أول شعب يجيء فى الصف الأول بين الأمم المتفوقة ، والترك بلا جدال مهما غرت ظواهرهم ، متأخرون فى معظم مظاهرهم فى سلم المدنية ، على ما عرفناهم وعرفهم غيرنا من الباحثين من أهل الشرق والغرب

وأعجب من هذا كله أن تحرم المرأة السويسرية الراقية من حق الانتخاب وترزقه المرأة التركية

أمامى الآن «تاريخ الأدب النسوى فى فرنسا» لجان لارنكان ، قرأته مرتين فما بلغت حظ النفس فى تلاوته ، لما ضم من الفوائد الأثيرة ، وليت العاملين والعاملات لانهاض الشرق القريب يتدبرون بعض ما فيه . وطبقات البشر تكاد تكون واحدة إذا تساوى أهلها فى شروط العيش والبيئة والثقافة . وإن ما يحاوله المقدمون علينا فى سلم الحضارة والنشوء الانسانى حرى بالمتأخرين عنهم فى معظم مقومات الحياة أن يحتذوا مثاله ، ويتأدبوا بأدبه ، ويأخذوا من مضامينه عبرة وعظة . والمدنية مذكانت ينقل فيها المتأخر عن التقدم ، ولا ضير فى ذلك ولا غضاضة

قلت يوماً لأحد علماء الترك المنورين : أما بلغك أن دمشق ستنار بعد قليل بالكهرباء ، وتسير فيها الحوافل الكهربائية ؟ فضحك وأجاب : إن حالكم بهذه الزينة الجديدة تقام بأيدى الغرباء ، أشبه بأمبراطور كوريا لبس على رأسه تاجاً من ذهب ، ولا سراويلات له تستر عورته . وكان الأولى باصلاح أن تكون للبلدة طرق معبدة ، وترزق حظاً من التنظيم قبل الكهرباء . وأنا أقرر الآن أنه كان الأولى قبل أن تمنح المرأة الشرقية حق التشريع فى مجالس النواب أن تتعلم وتتربى ، حتى إذا استوفت حظها على النحو الذى وصلت اليه المرأة الغربية ، ومتى تعلمت القروية كالبلدية كل ما يلزمها فى صراع الحياة تتمتع بالحقوق السياسية كالمرأة الانجليزية

جملة معترضة ساقت إليها المناسبة . والآن نرجع إلى تحليل الكتاب الجديد فنقول : عالج المؤلف هذا الموضوع أعواماً طويلة فى الصحف والمجلات وفى أسناد له ورسائل ، وكتابه هذا زبدة تجاربه وعصارة علمه وعمله . بدأ بفصل فى تاريخ المرأة فى القديم . فقال إن الرجل بينا كان فى العصور الخوالى صياداً محارباً عرافاً يسير فى العالم على هواه ، ويظفر طفراته فى سبيل المعرفة كانت المرأة قابعة فى دارها ، خاضعة خانعة لا يتسع نظرها لأكثر من أعمال بيتها ، وتلقين بنيها التربية الأولى . وكان

النساء فى يونان القديمة لا معرفة لهن بغير غزل الصوف يتعمدن القناعة لا يسألن أزواجهن غير هذا . ولذلك قال أفلاطون : إن القرد قرد مهما كان ، والمرأة مهما كان عملها تظل امرأة أى غبية مجنونة . يريد الهزؤ بها ، وقد بقى هذا الهزؤ بالنساء قروناً فى الأرض حتى كانت النصرانية ، ورأى رجال الكنيسة أن يحولوا دون زواج القائمين بأمر الدين فيها ، فصوروا المرأة بصورة بشعة تزهيداً منهم فيها ، حتى لتساءل أحدهم أن كان للنساء نفس

وجاء القرن الثانى عشر ، والنساء مأخوذات بعوامل كثيرة فى نهضتهن ، ليس لهن من الحرية ما يتسع لكثير من أسبابها ، ولئن أخذ كثير من الأساودة أو الفرسان وخدام الملوك يرون من الشرف رعاية السيدات ، ومعاملتهن بقواعد اللياقة والظرف ، فان كثيرين من المحافظين فى الغاليين (المغول) كانوا يبالغون فى وصف النساء بما لا يليق ، ويحرمونهن كل حرية . أما النساء فكن يصبرن على هذه المعاملة ويحاولن الخروج من حالتهن السيئة ، وبقين بين عوامل الحرمة وعوامل الاحتقار مدداً متطاولة ، ولا يشذ من هذا أناساً من طبقات مختلفة يحمونهن وبفضلهم يتصدرن ويظهرن ، وأما القاعدة العامة فالتشديد عليهن والمبالغة فى الاحتفاظ بالتقاليد الموروثة . وقل فيهن من كن يستطعن أن يكتبن كتابة بسيطة ، أو ينظمن ولو نظماً سخيفاً

وأصبحت إيطاليا فى القرن السادس عشر مصدر الآداب والفنون الأدبية ؛ ونرى الفرنسيس على مثال الطليان ، بأن جعلوا المرأة موضع إعجابهم ، فأخذ بعض الكاتبين فى فرنسا يضعون رسائل وكتبا فى تاريخ المرأة ، وكان أكثر ما وضع بإيعاز الملكات ، فكان هذا القرن قرن رفعة المرأة ، جسر فيه كستكليون فى إيطاليا أن يقول . لولا النساء لتعذر كل شىء ، ولولا هن لما كانت الشجاعة العسكرية ولا الفنون ولا الشعر ولا الموسيقى ولا الفلسفة بل ولا الدين ، وما عرفنا المولى فى الحقيقة إلا بهديهن

وبدأ النساء يستعملن قرائحهن ، فنشأ بينهن بعض القصصيات وواصفات الحكايات والشاعرات ، وقل فيهن من كان لها قريحة يعتد بها . ولم يكن الماهرات منهن أكثر من هواة يتفنن وينتشين من الآداب . وأنشأت مدينة ليون لقربها من إيطاليا ، وكانت تدعى « فلورنسة فرنسا » تتذوق الآداب والفنون ، وظهرت فيها المطبعة قبل أن تؤسس فى باريز ، وجعل فرنسوا الأول من مدينة ليون مضم جيوشه خلال حرب إيطاليا فنشأت فيها حركة فكرية نادر وقوع مثلها فى مدن الولايات ، فكانت منازلها مواطن الظرف واللطف والنساء يصطنعن فيها كل ما يعجب به الرجال . ومنهن من كانت تجيب على ما يوجه إليها من كلمات المديح بأبيات من الشعر ، وتجرأ على نقد ذوق الباريزيات ، فأصبحن بذلك ملكات الذوق والأناقة والجمال ، وفتح كثير من نبيلاتهن قاعاتهن لانشاء قصائد كان ناظموها يجوزون لأنفسهم تمجيد جسم الحبيبة والتغزل بكل ما فيه ، فاق الأشراف من الأزواج عنتاً من هذا التمجيد ، ولطالما احمرت الوجوه مما يقال ، وكان يومئذ للحياء سلطان على النفوس

ففى القرن السادس عشر إذاً أحرز النساء مقاماً محموداً فى المجتمع بفضل الشعراء والنبلاء ، وبقى عليهن أن يطالبن بحقهن فى التعليم وحقهن فى النبوغ . واشتد الجدال فيما إذا كان للمرأة الحق فى التعليم لتكون عالمة . ومن النبلاء من قضى للأميرات والنبيلات بتلقف مبادىء العلم ليستطعن إدارة أرضهن ويحكمن رجالهن ، ويدرن شؤونهن ، واقتصر الأمر على هذه الطبقة فقط . وبذلك أرجعوا البنات الطامحات من سائر الطبقات إلى عمل المغازل ، ونشأ من ذلك حوار طويل دعوه خصام الألف باء ، والنساء مع هذا لم يداخلهن اليأس . ولم يقعدهن عن المضى فى سبيلهن عائق . وما طلع القرن التاسع عشر حتى دخل النساء فى طور العمل بالمطالبة بحقوقهن فى التربية ، ولم يكن لنساء الشعب معرفة بشىء : أما المقائل فكن يجلبن لبناتهن معلمين أو يبعثن بهن إلى الأديار ، وكانت بعض الراهبات تعلم الناس منذ القرن السادس عشر مسائل بسيطة لا يستطيع بها المتعلمات تصحيح الاملاء ، ولاحذق شىء من صرف اللغة ونحوها . وقام فى ذهن بعضهم أن الواجب إدخال تعديل على هذه الحالة . وقال العالم مالبرانش ، بعد أن درس دماغ الرجل ودماغ المرأة : إن الواجب تعليم النساء تعليما صحيحاً . وارتأت مدام دى سيفينيه ، فيما كتبت به إلى ابنتها من الرسائل أن تلقن أولادها قليلاً من العلم تلقيناً حسناً ، وأن يلقن الفتيات الأدب خاصة

وقل أن جسرت امرأة فى القرن الذى نشأت فيه مدام

دى سيفنيه ومدام دى لافاييت أن توقّع كتابتها أو تأليفها ، مخافة أن تستهدف للسخرية . وما كان حول لويز الرابع عشر الملك العظيم سوى كاتبات يصرفن أوقات فراغهن فى الكتابة ، وما اقتدرت واحدة أن تكتب رواية تمثيلية ؛ وكان تأليف هذه الروايات وقفاً على الرجال . وعانى النساء فن الرسائل والشعر فى قلة . ودعى هذا القرن قرن المجتمعات والمحادثات . ومن هذا القرن خلف الكاتبات رسائل تجلت فيها مواهبهن فى الكتابة . ذلك لأن الرسائل غير محدودة الحدود ولا تربكها القواعد ، ولا تستلزم أكثر من ذهن وقاد ، وتفكر ذاتى ، وإرادة فى الاعجاب ، وحاجة يأمن معها المراسل صاحبه ، وهى صفات تفرد بها النساء . وما برّز فى هذا الباب أكثر من مدام دى سيفنيه ، ولا كُتب لامرأة أن دانتها فى هذا الباب . كانت تعشق المجد ؛ ولا نعلم لو رأت من زوجها عطفاً ـ وكان زير نساء فسّيقا ـ هل كانت تبرز هذا التبريز ؟ ومع هذا كانت تهوى من ترى ذات اليمين وذات الشمال على مثال أعظم كبريات السيدات فى عصرها . وهكذا يقال فيمن أحرز شهرة مثلها ، وإن كن أقل منها مكانة . كانت دى سيفنيه أماً عاشقة مولهة ، وكاتبة متفردة بهذرها ، وهذرها عبارة عن شعور قوى فيها تحاول بثه ولا تحتاج فى ذلك إلى تأمل كثير . ورسائلها ملأى بالجذل والسرور والتنويع والبديهة ، وهى مرآة عصر القرن العظيم . والنساء فى هذا الجنس من الكتابة يبرزن ويتفوقن

أما مدام لافاييت فالناس على أنه كان لها مؤازرون من الرجال يصقلون ما تنسخ قريحتها ، أو يضعون لها الخطط التى تسير عليها . وأصبح من المألوف أن يكتب الرجال ما ينشر من الآثار باسم النساء ؛ وكان موليير وبوالو يهزآن بالنساء الكاتبات المؤلفات ، ولطالما سلقاهن بألسنة حداد . وكان جمهور النساء فى ذلك العصر على غاية الجهل ، ما خلا بعض العلية والطبقات المختارة ؛ ويختلف عدد الأميات بين سبعين وأربعة وتسعين فى المائة بحسب الأقاليم ، ومنهن من لا يحسن توقيع أسمائهن ؛ وأخذ بعضهن يحضرن بعض دروس الرجال ويتعلمن شيئاً من الرياضيات ، وظل أناس من أرباب المكانة ينعون على النساء ذكاءهن ويمنعونهن من كل ثقافة . ورأى جمهور من الكاتبين أنه لا يليق الهزؤ بالنساء إلى هذا الحد ، وأنشأوا يعتبرونهن ويودون من الناس إجلالهن ، يقدمون النساء على الرجال فى الموائد والحفلات ؛ وإذا أحرز النساء هذا المقام الاجتماعى فى القرن الثامن عشر : فذلك بفضل ظهورهن فى الأندية الخاصة ؛ وكان البلاط الملكى فى مقدمة هذه المجالس ، وكانت كل امرأة تحررت فى الولايات أو العاصمة من بعض القيود تقيم لها ردهة استقبال ، يكون فيها دار ندوة للسياسة ومثابة للأدب . وكثرت هذه الأندية حتى حار الكتاب فى أيها يختارون . ومنها قامات بعض نساء أعضاء المجامع العلمية . وعلى هذا أصبح النساء يقدن بأيديهن الملكتين ويحكمن المجتمع ، يملين عليه قواعد الحشمة ، ويأخذن بزمام الآداب ، ويحكمن الأحابيل لا ليجعلن من يحمونهن من الرجال فى جملة أعضاء المجمع العلمى ، حيث كانت لهن الكلمة المسموعة ، بل ليسمح لهن بنشر آراء شديدة اللهجة . ولم يكتفين بهذا ، بل كن يطمحن إلى المجد الأدبى فينشرن فى الصحف والمجلات ، ويقرأن ما يكتبن على من يختلف إلى مجالسهن . وغدا الولوع بالآداب من أمارات الظرف فى النساء . وكثر عديد النساء اللائى تعلقن من الأدب بسبب ، وبلغ عددهن ثلثمائة مؤلفة فى الولايات والعاصمة ، وما فيهن واحدة تسهل المقابلة بينها وبين العقيلتين : سفينيه ولا فاييت . وصح بهذا أن يقال إن القرن الثامن عشر أمسى فى تاريخ فرنسا قرن نهضة المرأة . وما سبق لهن فى العصور الخالية أن يتعلق لهن الناس ويُستمع لكلامهن ويتمتعن بحريتهن

كل هذا وجوزيف دى مستر يقول فى كتاب له إلى إحدى بناته : إن فولتير ادعى أن النساء قادرات على أن يعملن كل ما يعمله الرجال ، وما هذا إلا للتقرب من قلوب بعض الغوانى الجميلات ، ولم يأت النساء بأثر يذكر فى ضروب الآداب ، فالنساء لم يؤلفن « الالياذة » ولا « الانياد » ولا « القدس المنقذة » ولا « فيدر » ولا « أتالى » ولا « رودكون » ولا « الميزانتروب » ولا « تارتوف » ولا « زهرة دى ميديسيس » ولا « أبولون دى بلفيدر » ولا « البرسة » ولا « كتاب الأصول » ولا « خطاب التاريخ العام » ولا « تليماك » ، ولم يخترعن الجبر ولا المجاهر ولا المناظر ، ولا مضخة النار ولا صناعة الجوارب الخ ، وما قامت امرأة عالمة جديرة أن تعد بين العلماء . فالمرأة ليست فى حال تستطيع أن تفوق فيها الرجل إلا بأنوثتها ، وليست سوى قردة إذا أرادت مساواة الرجل

(البقية فى العدد القادم)

محمد كرد على